

مقاربة مقاصدية لشعيرة الصوم في إطار فلسفة الدين

بشير خليفى*

الملخص

يُعَدُّ هذا البحث مقدمة أولية لمقاربة شعيرة الصوم وأخلاقه في الإسلام مقاصدياً، عن طريق محاولة التعمُّق في جملة المبررات العقلية للأهداف الحسية والروحية التي تتحقق بالصوم، ضمن إطار فلسفة الدين، مع الاعتراف بالمبدئي بإمكانية ورود حالات عديدة لا تحقق المقصدية بالنظر إلى نسبية الأفكار، وخصوصية الحالات. ووظَّف الباحث منهج التوصيف والتحليل المقاصدي، في النظر إلى الصوم في كليته، بما يوائم ظروفات أبي إسحاق الشاطبي الذي جعل المقاصد أصل الأصول، بتجسيده قيمة الإحسان في جلب المصالح ودرء المفاسد على مستوى الدين، والنفس، والعقل، والمال، والنسل. وينفتح هذا المنهج على مقارنة متعددة التوجهات والتخصصات، ولا سيما تلك التي تُؤطرها منظومة فلسفة الدين.

الكلمات المفتاحية: الصوم، فلسفة الدين، قراءة مقاصدية، علاقة الروح والجسد، مرتبة التقوى

A *Maqasidi* approach to the ritual of fasting within the framework of the philosophy of religion

Bachir Khlaifi

Abstract

This research is a preliminary introduction to approach fasting as worship act within its own ethics according to the normative purposes and intents of Islam. It is an attempt to have a deep investigation of the rational purposes of the sensual and spiritual objectives of fasting, within a framework of philosophy of Religion. It assumes an initial recognition of the possibility of cases were fasting does not achieve the normative *maqasid*. The researcher employed a descriptive-analytical methodology, in looking at fasting in its entirety, in accordance with the ideas of al-Shatbi, who made the purposes the basic foundation of the religion, which requires the value of *Ihsan* in bringing benefits and preventing harms in preserving the five *maqasid*: religion, life, intellect, property and procreation. This methodology is open up to a multi-disciplinary approach that employs various interrelated disciplines, especially those framed by the philosophy of religion.

Keywords: Fasting- Philosophy of religion- *Maqasidi* approach, Spirit-Body relationship, Rank of *Taqwa*

* أستاذ محاضر بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، وباحث في مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، بجامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر- الجزائر. البريد الإلكتروني: bachirkhelifi@yahoo.fr
تم تسلم البحث بتاريخ ٢٣/٢/٢٠١٦م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٠/٢/٢٠١٧م.

مقدمة:

يتفرد الإنسان بميزة التساؤل والتفكير، فهو الكائن الوحيد الذي يعقل وعيه، بما يجعله متأملاً ذاته بطريقة قصدية، ويلامس هذا التأمل مختلف جوانب حياته من حيث السعي لفهم الظواهر، ومعرفة أسبابها، ونتائجها. وقد حثَّ الإسلام -من حيث مقصديته، وكونه ديناً سماوياً- الإنسان على استخدام عقله بغرض استحقاق التكريم الإلهي، ثم الخلافة على الأرض للنهوض بحاله وأحواله، خصوصاً وأنَّ العقل في مبدئه ومن حيث تسميته عقلاً، فهو يعقل أي يجس ويمنع صاحبه عن التورط في المهالك. في إحالة إلى أداة العلم والمعرفة والتمييز ومملكة الإدراك التي تمنح الإنسان الفرادة والتميز وأهلية الاستخلاف.

لقد فضّل الله الإنسان وكرّمه بعقله ليكون قميناً بتحمّل المسؤولية المقرونة بحريته، من منطلق المعرفة بالمقاصد، بما في ذلك مقاصد العبادة ما دامت مُعلّلة بمقاصد الخلق، فيكون الشرح والتفسير دافعاً للفهم والفعل؛ إذ من الحكمة تعليل الأمور، كما أنَّ المعرفة بالمقاصد هي دعوة إلى اكتساب ثقافة الاقتناع؛ ما يجعل الفعل صادراً عن الذات بمحض الإرادة، فيؤثّر إيجاباً في السلوك. وعلى هذا، تبرز شعيرة صيام رمضان في الدين الإسلامي بوصفها أحد أركان الإسلام، وتبرز معها المقاصد والمنطلقات الأساسية التي تُعده فريضة، لا يراد بها إلحاق الأذى بالصائمين، وإنما تركية النفس وتطهيرها، وترويض البدن وتدريبه على تحمّل المشاق، فيكون التخلُّق والصبر والتضحية والطهر والتقوى عناوين رئيسة في المنطلق والمنتهى^١. وهذا ما يميّز الصوم -بوصفه عبادةً تحوز مقاصد يمكن تجليتها في إطار فلسفة الدين ببعديها: الإسلامي، والإنساني- من نظام الحماية الذي يروم استعادة الرشاقة، أو التوقف عن تناول الطعام في أثناء الإضراب عنه، ليكون الفارق مرتبطاً بالمقاصد والغايات.

وغاية المقاربة المقاصدية تتأسس على مراعاة المقاصد والغايات واستحضارها في عملية فهم النصوص وقراءة الواقع ومستجداته؛ ما يمنح العقل حضوره الأبرز، ويساعد

^١ نوفل، عبد الرزاق. صوم رمضان، القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٣م، ص ٣٩.

على تحقيق مصالح العباد، فيكون لكل "حكم حكمته، ولكل تكليف مقصده." ^٢ وعلى هذا، فإنَّ التوسُّل بمنهج القراءة المقاصدية يعني بالضرورة المماهة مع ما تقتضيه فكرة المقاصد من خلال الدعوة إلى التيسير، وتمثيل قيمة الإحسان في جلب المصالح ودرء المفاسد على مستوى الدين، والنفس، والعقل، والمال، والنسل. ^٣

ولا شكَّ في أنَّ الوسيلة المهمة الأولى لكل قراءة مقاصدية تحيل بالضرورة إلى المعرفة بالغايات والأهداف؛ إذ تبرز الغاية من معرفة مقاصد الصوم بوصفه عبادةً، من دون أن تعني العبادة "الانقطاع عن العمل والتجرد عن الدنيا" ^٤ بقدر إحالتها إلى سياقات فكرة المقاصد في إطارها العام، المهادفة أساساً إلى إسعاد الأفراد، وإعمار الدنيا، وجعلها مزرعة للآخرة بالإيمان والعمل الصالح.

والبحث في مقاصد الصوم باستعمال الآليات المعرفية التي تُقدِّمها فلسفة الدين يدفع أساساً إلى تحفيز خصيصة التدبُّر؛ أي التفكير في أركان الدين الإسلامي وخصوصياته باستخدام لغة تحتفي بالحجاج، وتعلي من شأن العقل بوصفه أساس التكريم والتشريف الإلهي للإنسان، فضلاً عن منح الإسلام بُعده الإنساني من خلال الحوار والمجادلة والتي هي أحسن، وصولاً إلى شرح تعاليمه -ولا سيما للآخر المختلف- باستعمال آليات الحجاج والبرهنة مثلما يُقدِّمها علم المناهج. ونظراً إلى أهمية الموضوع، وندرة الدراسات* التي تعرض لشعيرة الصوم ضمن إطار المعرفة بالمقاصد؛ فإننا نروم في هذا البحث استقصاء مقاصد الصوم وتعرُّفها بناءً على المقاربات الأساسية، والمناهج القرائية التي تُقدِّمها فلسفة الدين في بُعديها: الإسلامي، والإنساني.

^٢ عطية، يوسف. الاجتهاد والتجديد في الفكر المقاصدي، بيروت: دار الطليعة، ط ١، ٢٠١٤م، ص ٢٤.

^٣ ابن عاشور، الطاهر. مقاصد الشريعة الإسلامية، القاهرة-بيروت: دار الكتاب المصري؛ دار الكتاب اللبناني، ٢٠١١م، ص ٧٠.

^٤ الفاسي، علال. مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط ٥، ١٩٩٣م، ص ٨.
* بالرغم من ورود دراسات سابقة تقرأ الصوم ضمن إطار المقاصد، فإنَّ ذلك لا يفي بالغرض في حال المقارنة بين مسألة مقاصد الصوم والحديث عن فريضة الصوم من حيث شروطه وحكمه. ومن هذه الدراسات ما كتبه أبو حامد الغزالي في أسرار الصوم، وكذا العز بن عبد السلام في مقاصد الصوم، وما كتبه بعض علماء المقاصد، أمثال الطاهر بن عاشور، وأحمد الريسوني.

أولاً: فلسفة الدين؛ المفهوم والمقاصد

فلسفة الدين هي فرع من الفلسفة يبحث في قضايا الدين والأسئلة المتعلقة به، ومعالجتها وفق التنظير المعرفي، أو الخبرة الحياتية. والواقع أنّ هذه الفلسفة تُمثّل معرفة تعود جذورها إلى بدايات البشرية حينما عمد الإنسان إلى التساؤل في قضايا الدين على غرار مبررات وجوده (نقصد الإنسان والدين)، والاعتقاد بوجود قوة عليا مفارقة، فضلاً عن أسئلة الخير والشر، وما يتعلق بحقل الميتافيزيقا بوجه عام، مثلما يتضح في تحليلات أرسطو الذي حاول تحليل العالم عن طريق الذات الإلهية، أو المحرك الذي لا يتحرك.

فميلاد فلسفة الدين فرضته الحاجة المعرفية الملحة للفهم، ثم استكناه مختلف آليات المنهج الفلسفي القائم على التساؤل والاستدلال، في محاولة للفهم بأسانيد عقلية، استناداً إلى المحاولات الجادة للإجابة عن الأسئلة التي يطرحها الدين.

وقد ارتبط التصور العام لفلسفة الدين بمعالجتين أساسيتين، تحيل إحدهما إلى النزعة الطبيعية التي تنظر إلى الدين بوصفه حالة واقعية تقوم على مبررات وجودية في إثبات الإيمان ونفيه، أو تصور عقلائي مُماثل في الفعل، مع اختلاف في المنهج والمضامين، في إطار مقارنة تسعى لإحداث التشارك المعرفي بين الفلسفة والدين، فيُقدّم الدين للفلسفة موضوعاته؛ بغية مناقشتها، والبحث في مضامينها ومبرراتها، بما في ذلك التجربة الدينية التي تشري الفلسفة وتزيدها غنىً، في حين تُقدّم الفلسفة موضوعها ومنهجها ضمن إطار النقد في صيغته الثقافية؛ ما يُسهّم في إثراء العلوم الدينية من المناهج الفلسفية القرائية والنقدية التي تنهل من مختلف المعارف في أثناء عملية البحث والاستقصاء. ولهذا يرى ريتشارد سوينبورن Richard Swinburne أن فلسفة الدين تعني الدراسة العقلانية للمعتقدات الدينية، والإفادة من الغنى الكامن في تاريخ الفلسفة. فما دامت الفلسفة تقوم على أساس التنوع والتعدد، فلا وجود لتوصيف وحيد خاص بممارسة التفكير في فلسفة الدين؛ إذ يتمُّ الأمر بطرائق متعددة، ومناهج مختلفة^٥.

⁵ Phillips, DZ and Tessin, Timothy. *Philosophy of Religion in the 21 century*, New York: Pealgrave Macmith Edition, 2001, Introduction, P 3.

وفي إطار فلسفة الدين هذه، فقد انبثقت العديد من الرؤى التحليلية والنقدية استناداً إلى النصوص والمعتقدات، وجرى تحليلها في سياق معانٍ عامة تنظر إلى الدين بوصفه إحساساً وسلوكاً يمكن إدراكه وقراءته عقلياً، أو ضمن نمط ديني مُحدّد؛ سواء بالبحث التفصيلي في فلسفة الدين محل الاعتقاد، أو بالمقارنة بين دين وآخر. وهذا يُمثّل الرؤية التي أسّس لها ياندل كيث Yandell Keith أثناء بحثه في الشروط المعرفية لفلسفة الدين التي تقوم على التنوع والتعدد شريطة الإحاطة بالميتافيزيقا والإبستمولوجيا والأخلاق. فعلى هذا، يرى ياندل أنّ فلسفة الدين تقوم على مبدأ الحياد، وتحكمها الإمكانيات المتعددة في معالجة القضايا نفسها بحسب تنوع الديانات، أو وجودها ضمن دائرة الإيمان وخارجها؛ ما يجعل الحالة الفردية والإحساس عنصرين مهمين لفهم الظاهرة الدينية.^٦

ثانياً: سؤال الصوم في إطار فلسفة الدين

يحيل الصوم لغةً إلى الإمساك والكف، مثل قولنا: "صام عن الكلام" بمعنى توقف. يقول ﷺ في وصف حالة مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ (مريم: ٢٦)؛ أي كفّاً عن الكلام.

أمّا في إطار الممارسة الدينية الإسلامية فإنّ الصوم يُعبّر عن ركن رئيس من أركان الإسلام الخمسة؛ إذ يشير إلى الإمساك، والامتناع الفعلي عن المفطرات (الطعام، والشراب، والجماع) نهاراً من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وفق ضوابط وشروط مُحدّدة تتأسّس أولاً على البلوغ والنية.

وعلى هذا، فالصوم يُحتم الامتناع والإمساك عن أشياء مخصوصة على وجه مخصوص في زمان مخصوص؛^٧ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١٧) أَيَمَا مَعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ

⁶ Yandell, Keith. *Philosophy of Religion*, London and New York: A Contemporary Routledge, 1999, PP 14, 18.

^٧ طنطاوي، محمد السيد. الصوم المقبول، القاهرة: دار أخبار اليوم، ١٩٩٥م، ص ٨.

فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ مِّنْ لَّحْمٍ خَيْرٌ مِّنْ لَّدُنَّكَ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ (البقرة: ١٨٣-١٨٥).

وينبغي الإقرار بأن الصوم يُمثّل ممارسة بشرية قديمة ارتبطت بالكثير من الديانات (مثل: الهندوسية، والبوذية، والمسيحية، واليهودية) وفق تظاهرات عدّة، أهمها: التقليل من تناول أنواع معينة من الطعام، أو الامتناع عنها، والامتناع عن تناول اللحوم، أو التقليل منها، والكف عن الكلام مدّة معينة لأغراض متعددة، منها: الرغبة الشديدة في التقرب إلى الخالق، وترقية النفس، وتعويد الجسد على الصبر، أو معاقبته على ارتكاب الذنوب، والتكفير عن الخطايا، والإعلان عن الحزن، وإظهار الشكر...^٨

وبالمقابل، وضمن الإطار المعرفي للصوم، يرى الكندي أنّ الفلسفة هي معرفة الأشياء بحقائقها، عن طريق التفكير في "علم الربوبية، وعلم الوجدانية، وعلم الفضيلة، وكل علم نافع، والبُعد عن كل ضار، والاحتراس منه."^٩ ولا شكّ في أنّ الغرض من هذا التحليل لا يتعارض مع الرغبة الفعلية في البحث عن أحقية مقاصد الصيام في تشكيل مجال استقصاء في فلسفة الدين؛ سواء في عموميتها، أو ضمن الفضاء الإسلامي، بالنظر إلى المباحث التي تختص بها فلسفة الدين، والتي تحاول أن تطرح أسئلة، وتقدّم أجوبة لتحليل حالة الإيمان، وتفكيكها معرفياً بغرض عقلنتها، ثم الإقرار بحالة التأمل بوصفها وضعيةً وفضيلةً ملازمةً للإنسان، وصولاً إلى دائرة الإيمان الكامل القائم على المعرفة بالمقاصد.

وتأسيساً على ذلك، يُمثّل الصيام حالة إغناء لمبحث فلسفة الدين المبنية على التساؤل، ولا سيما أنّ الأمر لا يتعلق بإضراب مستمر عن الطعام والملذات، أو بغياب

^٨ المحي، عبدالرزاق رحيم صلال. العبادات في الأديان السماوية، دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠١م، ص١٠١.

^٩ الكندي، يعقوب بن إسحاق. كتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى، نقلاً عن: - مرجبا، محمد عبد الرحمان. الكندي فلسفته-منتخبات، بيروت: منشورات عويدات، ط١، ١٩٨٥م، ص١٤٠.

تام للطعام بقدر ما يحيل إلى استجابة إرادية لفرض إلهي وواجب ديني مقرون بمنظومة تعبدية قائمة بذاتها، على أساس التسليم بأوامر الله ونواهيته.^{١٠} فشهر رمضان في المدونة الإسلامية هو شهر الرحمة والغفران، ومؤشر لدرجة متقدمة من الإيمان، تَعُدُّ مَنْ صامه على أحسن وجه بالمغفرة والطمأنينة والخير العميم.

وما دامت فلسفة الدين ترنو في إطارها العام إلى استقصاء المفاهيم الدينية وتفعيلها بغية تحصيل مقصد الاقتناع المفضي إلى السعادة؛ بتحقيق شروطها على الصعيدين: الفردي والاجتماعي، فإنَّ ذلك مرتبط بالقيم الحضارية والإنسانية الكامنة في مقاصد القيمة الدينية، مُثَلَّةً في فوائد الصوم التي أبرزها العز بن عبد السلام - بوصفه واحداً من علماء المقاصد - في قوله: "للصوم فوائد في رفع الدرجات، وتكفير الخطيئات، وكسر الشهوات، وتكثير الصدقات، وتوفير الطاعات، وشكر عالم الخفيات، والانزجار عن خواطر المعاصي والمخالفات."^{١١}

لذلك ستكون معالجة هذه المسألة في مقام أول ضمن إطارين مُتَماهين: يتعلق الأول بدائرة الإيمان من منطلق اعتبار الصوم شعيرة دينية بُني عليها الإسلام، في حين يرتبط الإطار الثاني بالبعد الإنساني وما تستدعيه فضاءات المعرفة وضوابط المنطق والاستدلال.

ثالثاً: الصوم بين الإيمان والعقل

يبرز أثر الصوم جلياً بوصفه حالةً مثبتةً للتمازج الحاصل بين العقل والوحي؛ إذ إنَّ الاقتصاد على الإيمان الساذج البسيط الذي لا أثر فيه للعقل يضر الدين. وبالمقابل، فإنَّ إعمال العقل يُسهِم في ترقية الإيمان، ويسنده بأسس متينة، ويُحوِّله إلى إيمان فاعل مرتبط بالمقاصد التي يتحلَّى وفقها صيام شهر رمضان في الشكل الذي يتفاعل معه العقل

¹⁰ Salamone, Frank. *Encyclopedia Religious, Rites, Rules and Festivals*, New York and London: Routledj, 2004, P 37.

¹¹ ابن عبد السلام، العز. *مقاصد الصوم*، تحقيق: إياد خالد الطباع، بيروت-دمشق: دار الفكر المعاصر؛ دار الفكر، ط١، ١٩٩٢م، ص١٠.

بالإيمان؛ إذ تتمثل أهميته في التفكير في مقاصده وفوائده المتعددة التي تُؤثر إيجاباً في حياة الفرد المسلم، الذي يتهيأ لبدء الصيام على أساس إيماني راسخ في محايثته للروحانيات، بوصفه ركناً من أركان الإسلام الخمسة، وعلامة على تجلية الاعتقاد وتحليته. فالإيمان في روحانيته هو تصديق يجمع بين الاقتناع والإذعان للخير؛ أي المعرفة بالعقل، والتصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان.

وعلى هذا، فلا يراد من صوم رمضان معاقبة الناس، والحيلولة دون تمتعهم بمباحج الحياة، وإنما يراد به تطويع النفس، والسمو بها؛ لكي تشعر بلذة السعادة الإيمانية بعد الاستجابة لهذا النداء الرباني، وتنعم بالطمأنينة بعد تمثله بشروطه ومعانيه ومقاصده، ولا سيما أنَّ صيامه غير مُلزم لفترات مُحددة في حالات معينة، وغير مُحدّد بوقت معين من السنة؛ ما يعني مروره بأشهر السنة وفصولها جميعاً، فتتحوّل بذلك حالة المسلم النفسية، وتتهيأ للارتقاء.

ولا شكَّ في أنَّ المقصد الأساس للمسلم في هذا الشهر الفضيل هو نيل مطلب التقوى، والوصول إلى هذه المرتبة عن طريق الصبر. ولهذا، فإنَّ خصوصية الإحساس في أثناء ممارسة شعيرة الصوم هي نتاج المواجهة بين الإيمان والعقل؛ أي إسناد الشعور النوعي بوعي وفهم للمقاصد، لتكون العبادة أكثر حضوراً وملامسةً لإيمان المسلم ووعيه، فيلامس مرتبة الإحسان بوصفها استحضاراً للعناية الربانية في الحركات والسكنات^{١٢}، بما يؤدي إلى تقوية العزيمة، وتهذيب النفس، والتحكم في العادات، ولا سيما الذميمة منها، فتتشكّل في نهاية المطاف بوتقة الاغتناء المتبادل بين الإيمان والعقل؛^{١٣} إذ يُعدُّ شهر الرحمة والغفران فرصة مثلى لإقلاع بعض الناس عن التدخين، وتجاوز بعضٍ آخر حالات الغضب الشديد، أو الفراغ القاتل المفضي إلى التهلكة. وهو أيضاً ترسيخ للصورة المثلى في اشتياق الكمال عن طريق التوجُّه الدائم إلى طلب مغفرة الخالق ورضاه؛ بتوطيد أركان الإيمان من عبادات ومعاملات في أثناء الصوم والصلاة، ولا سيما صلاة التراويح، وليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.

^{١٢} شيخو، محمد أمين. الصيام رابع المدارس العليا للتقوى، دمشق: دار نور البشير للطباعة والنشر، د.ت، ص ٦.

^{١٣} المحافظ، أحمد شاهين. فضائل شهر رمضان، عمان: مكتبة المنار للتوزيع والنشر، ط ٢، ١٩٩٠م، ص ٦.

ومقصدية فريضة الصيام تُؤكِّد أنَّ الإنسان عقل وقلب؛ إذ لا يقظة للقلب مع خمول في الفكر. فالقلب المؤمن يحتاج إلى عقل يُوطِّد الإيمان من حيث المعرفة بالمقاصد والغايات؛ أي مقاصد الصيام الكامنة أساساً في جلب التقوى والقوة، في إحالة إلى مطلب الإيمان الصادق الذي يجعل الإنسان محباً لغيره عطوفاً صدوقاً مُقَرَّراً بعدم جدوى التنافر بين الناس. أمَّا التصور بأنَّ سيادة العقل تكون بالاستغناء عن الإيمان فمجانب للصواب؛ نظراً إلى إسهام الإيمان الفاعل في التغلب على المشاق، واعتباره حافزاً وسنداً لتكوين عقل نوعي يرنو إلى تحقيق الأهداف بغض النظر عن المعوقات.^{١٤}

يتبيَّن ممَّا تقدَّم أنَّ حقيقة الصوم تحيل إلى الانسجام الفعلي بين العقل والإيمان. فالقدرة على الصوم تنبع أساساً من الإيمان الذي قوامه السند العقلي، ويظهر ذلك جلياً في قدرة المسلم على التحمُّل في أثناء امتناعه عن تناول الطعام والشراب؛ استجابةً لمطلب إلهي في المقام الأول، واقتناعاً بمقاصد الصوم وإيجابياته المتعددة؛ فقيمة الشيء لا تُعرَف إلا بعد فقدانه، فيكون التوقف عن تناول الطعام والشراب وبقية المفطرات الحلال وسيلة مثلى للتعرف قيمتها، فيحس المسلم بألم الجائعين والمرضى، وتبرز فضيلة الشكر؛ بحمد الله على نعمه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، ليس باللسان فقط، وإنما بالفعل عن طريق الجوارح، وحسن التدبير؛ مصداقاً لقوله ﷺ: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧)، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١).

يُذكر أنَّ التأثير الإيجابي للصوم يشمل الإيمان والعقل في آنٍ معاً؛ فالمؤمن يتخرج في مدرسة الشهر الفضيل متمتعاً بقوة معنوية كبيرة. والصوم المقرون بالإيمان الحقيقي يُوطِّد علاقة الإنسان بخالقه وبالناس، ويمد العقل بتيار ديني مُعَبِّر عن الفطرة السليمة، فيجعله عقلاً راجحاً مؤيداً مُتغلباً على الأهواء والشهوات، خالصاً من كل ما يثير الأنانية والشحناء والكراهية.^{١٥}

^{١٤} الغزالي، محمد. ركائز الإيمان بين العقل والقلب، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١م، ص ٢١.

^{١٥} طراد، حسن. من وحي الإسلام حول فلسفة الصيام، بيروت: دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت،

رابعاً: الصوم بين المادة والروح

الإنسان هو نتاج المزوجة بين الروح والجسد، وهذا يجعل منه كائناً ينوس بين قطبين من الملائكية والشيئية. فالروح تبتُّ فيه الشعور الذي يرفعه إلى الأعلى مُذكِّرةً إياه بمصيره، والجسد يرتبط بالوجود المادي في أثناء أدائه الوظائف المهمة، في دلالةٍ على الحضور المادي المُعبّر عن التمثُّل؛ أي تكوُّن الصورة في مادة تشغل حيزاً داخل المكان.

وتاريخ الإنسان حالة قارّة لصراع بين طبيعتين، ترتبط أولاهما بالوضع المادي الذي يحياه الإنسان، فيحتاج هذا الأخير إلى المأكل والمشرب والملبس لكي يستمر وجوده البيولوجي، ويجوز فطرة التملك وحب الذات المُتمثِّلة في حب البقاء والتنافس. أمّا الطبيعة الثانية فتبرز في تهميش الجسد لمصلحة الإغلاء من شأن الروح، بغرض الوصول إلى لحظة الإيمان التي تصير معها النفس مطمئنة، ويصير معها الجسد متعالياً منتشياً بالرغم ممّا قد يعتره من عوارض وأسقام.^{١٦} وفي حالة ثالثة، قد يحدث الانسجام بين صحة الأبدان وصحة الأنفس، للوصول إلى مرتبة التقوى بحسب تصور ابن رشد.^{١٧}

والحقيقة أنّ الكثير من الفلاسفات السابقة خاضت في مسألتي الروح والجسد إثباتاً ونفيّاً، فتحدث بعض الفلاسفة عن حالة النيرفانا في الفلسفة البوذية بوصفها اعتقاداً تاماً، وتجلياً روحانياً يتوصل إليه الإنسان بعد ممارسات روحية تجعله يتحمل المشاق، ويستسيغ الصعاب. ومثال ذلك اليوغا بوصفها رياضةً إيمانيةً تهدف إلى الترقى والسيطرة على الجسم، وصولاً إلى لحظة التحرُّر. وبالمقابل، فقد أقرّ فلاسفة آخرون بسلطة الجسد بوصفه صورةً لهوية الإنسان، وحالةً لإثبات الكينونة، وشكلاً للتمتع بمباهج الحياة في المأكل، والمشرب، ومختلف اللذات.

وفي هذا الإطار، تبرز خصوصية الصيام في إحداثه الانسجام والتناغم بين الحياة الروحية السرمدية والتصوير الجسدي الخاضع للشيئية، بالمعنى التوافقي الذي يتم فيه

¹⁶ Sethi, Mohini and Jain, Barkha. *Fasting and Feasting*, New Delhi: New Age International Publishers, 2000, P ٨٢.

¹⁷ ابن رشد، أبو الوليد. *فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال*، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، القاهرة: دار المعارف، ط٣، ١٩٩٩م، ص٦١.

اجتناب المفطرات مدّةً زمنيةً محدّدةً؛ إذ لا تنسجم فلسفة الصيام مع تصور معين يُعدُّ الجسد سبباً للسيئات، ومصدراً للشورور، من منطلق حملته الغريزة المفضية إلى الانحراف. وقد يصح ذلك القول لو فرض الصوم على المسلمين كافةً من دون اعتبارٍ لشرط البلوغ، أو اعترافٍ بحالات المرض، والسفر، والعجز، والكِبَر. قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وتشريع صوم رمضان ومقصديته يحيلان إلى اعتباره مدرسةً تجعل المتخرج فيها أهلاً لتحمل الصعاب، مُتسلِّحاً بدافعية نفسية تساعد على ترك الطعام والشراب بالرغم من توافرها، فيشعر بلذة الصبر المنبعثة من الطاقة الروحية في الإحاطة بفضائل شهر رمضان؛ شهر الرحمة والغفران، فترتاح المعدة، وتصفو النفس، وتشرق الروح، وهو الانسجام الذي عبّر عنه رسول الله ﷺ بقوله: "كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به. والصيام جُنَّةٌ، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، وإن سابه أحد أو قاتله فليقلل إليّ امرؤ صائم. والذي نفس محمد بيده لخولف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه."^{١٨}

ففي هذا الحديث يتعالى الجسد في اتصاله بالروح، فيعبّر الإفطار عن الفرحة بكسر سطوة الجوع ولهيب العطش، بتلبية سنّة التعجيل بالإفطار في أثناء سماع آذان المغرب، أو في أثناء الفرحة الكبرى بقدوم عيد الفطر، حيث يسعد الصائم بتمكّنه من التغلّب على استبداد النفس؛ ما يُحقّق المقصد الأساس في الإسلام، مُمثلاً في الرغبة الواعية للاستسلام للخالق ﷻ من حيث المعرفة بمقاصد العبادات.

ولا شكّ في أنّ هذا الفهم يُؤسّس لتصور أخلاقي للجسد، من حيث تأكيد أسبقية الفهم والوعي على الوجود، فيصير الجسد إثباتاً فعلياً للوجود النافع، ولا سيما أنّ الله تعالى لم يفرض الصوم إلا بعد ما رسخت العقيدة في نفوس المسلمين، فألفوا الصلاة الخاشعة، وتجاوزوا أيام الحن، بعد استقرارهم في المدينة المنورة، حيث توافرت لهم الظروف المعيشية المناسبة ليكون الصيام فعلاً واعياً، ونتاج رؤية مقاصدية يكون فيها الفرد والمجتمع

^{١٨} البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح، بيروت: دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ، ص ٨٣٤.

مُنتجاً مُحَقَّقاً للتطور والاستقلالية في معانيها المختلفة، بمنأى عن الحاجة والاضطرار؛ لأنّه لم يُفرض أساساً في أجواء من الجوع والمسغبة.^{١٩}

وفلسفة الصيام في الإسلام تقوم على مقصدية الحفاظ على الجسد؛ فالمسلم القوي خير من المسلم الضعيف، وذلك استناداً إلى بُعدين رئيسين، هما: القوة الروحية التي تمد الفرد بالإرادة والوعي، والقوة الجسدية التي تنحو نحو الفعل، وتُمكّن الفرد من تمثّل مقصدية خلافته في الأرض. والصوم يُسهّم في ترقية هاتين القوتين؛ إذ تنمو القوة الروحية في ظل قدرة الفرد على التحمّل، والسعي الدؤوب للنجاح، في حين يظهر البُعد الجسدي من خلال الانعكاس والتجليّ الايجابي للصوم على صحة الإنسان الجسمية والنفسية. وهذا التفسير نجدّه عند أبقراط (أبي الطب اليوناني) الذي بيّن أهمية الصوم -والاعتدال في الطعام إجمالاً- بوصفه مدخلاً صحياً لسلامة الجسم والتعافي من الأمراض.^{٢٠} وعلى هذا، يُعدّ الصوم علاجاً نافعاً للكثير من الأمراض؛ إذ يساعد الإنسان على التفكير درءاً للبطنة التي تُذهب الفطنة، ويُسهّل عملية التنفس حينما تعمل الرئتان بيسر نتيجة تناغمهما مع وضعية البطن المتمثّلة في قلة إفراز الغدة المعدية، فتأخذ المعدة قسطاً من الراحة يساعدها على تجديد نشاطها. وفوق هذا وذاك، يفرض الصوم على الجسم استهلاك الشحوم المخزنة التي تُعدّ سبباً رئيساً للبدانة، والسكري، والضغط؛ ما يؤدي - في نهاية المطاف - إلى تخفيف وطأة الوظيفة الملقاة على كاهل القلب والكبد ومختلف الأعضاء، بما يُسهّم في تقوية الجسم،^{٢١} وهو ما يُؤكّده قول الرسول الكريم ﷺ في حديث أخرجه الطبراني: "صوموا تصحّوا." وهذا التوجّه هو نفسه الذي قدّمه يافس فيفيني Yves Vivini حينما عقد في كتابه عن الصيام مقارنة بين الإمساك عن الطعام وتخفيف الآلام، وعلاج الأمراض، إضافةً إلى تحسين حالة المرء النفسية.^{٢٢}

^{١٩} الندوي، أبو الحسن علي الحسيني. الأركان الأربعة: الصلاة، الزكاة، الصوم، والحج في ضوء الكتاب والسنة ومقارنة مع الديانات الأخرى، الكويت: دار القلم، ط٣، ١٩٧٤م، ص١٨٠، ٢٠٦.

^{٢٠} Laty, Dominique. *Les Regimes Alimentaires*, Paris: Que sias je, Press Universitaire de France 1996, P 16.

^{٢١} Dave, William. *The Miracle Results of Fasting: Discover the Amazing Benefits, in your Spirit*, USA: Souland Body, Marrison House, Tulsa Oklahoma inc, 1984, P 37.

^{٢٢} Vivini, Yves. *Le Jeune et les Traitements Naturelles*, Toulouse, France: Les Presses de L'imprimerie du Sud, 1970, P 9.

خامساً: مدرسة رمضان وتشكيل الإنسان النوعي

شهر رمضان هو بحق مدرسة متميزة لتشكيل الإنسان النوعي؛ إذ يساعده على الخروج من إكراهات الروتين والعادات المكرورة، واكتساب عادات جديدة تُسهم في تطوير مهاراته، وترقية ملكاته، وكذا ترشيده بجملة الفضائل التي يدعو إليها الشهر الفضيل. فعن طريق مبدأ الكف والإحياء الذي تتسم به العادات، يجد الصائم في رمضان الفرصة السانحة لترقية سلوكه، ثم الإقلاع عن العادات السيئة المضرة، وترسيخ العادات الإيجابية التي تجعل الفرد عنصراً فاعلاً في المجتمع.

إنَّها مدرسة نوعية تمتاز بتدريبات فريدة تمس النفس والبدن، وتُسهم في ترميم الإنسان، وتنقيته من الأدران والمثالب العالقة به؛ ما يساعده على التخلص من الشهوات والضغط، وتعوُّد الكدح والتعب، فيصير مقتدرًا بالفعل لقدرته على الصبر وتحمل الشدائد، ويصبح مسؤولاً عن تصرفاته بوصفه عاقلاً بالغاً قادراً، زيادةً على مختلف الشروط التي تُؤطر الصوم من حيث الوجوب والصحة.

وفي السياق نفسه، تقوم فلسفة الصيام في جزئها الينبغياتي خاصةً على التآزر والتضامن بغرض تحقيق التوازن بين الحياة الفردية والحياة الجماعية، وهو ما يدفع كثيراً من الأفراد والمجتمعات إلى الاستعداد له والاحتفال به، عن طريق إحيائه بالعبادات والأنشطة الاجتماعية والثقافية، إضافةً إلى العادات الحميدة التي ينبغي تمثلها، ولا سيما في الفعاليات والممارسات التي تضطلع بها الجاليات المسلمة في بلاد المهجر، بما يُعرف بموائد الإفطار الجماعية، ومن ذلك أنشطة أفراد الجالية المسلمة في القطب المتجمد الشمالي بمدينة ترومسو Tromso في النرويج؛ إذ يُمثل لهم الشهر الفضيل مناسبة دينية مهمة لتعلم الدين وترقية النفس، ويُعدُّ فرصة للقاء والتعارف في أثناء أداء الصلوات الجماعية، ولا سيما صلاة التراويح، فضلاً عن تنظيم لقاءات دينية وأنشطة علمية، بما في ذلك الاجتماع على موائد الإفطار الجماعية.^{٢٣}

²³ Yunis, Alia. *Ramadan in the Farthest North*, KSA: In, Saudi Aramco World Magazine, Vol63, January/ February 2012, P 25.

وعلى هذا، يُعدُّ الصوم وسيلة للتكافل والتواصل الاجتماعي، بحيث يجتمع الصائمون في حلقات الذكر، ويلتقون حول مواعيد الإفطار العائلية، أو تلك التي يُنظّمها المحسنون من الخواص والجمعيات الخيرية بغرض إطعام المسافرين والفقراء وعابري السبيل. وممّا يعطي البُعد الاجتماعي حضوره الأوفر حالة التآزر والتضامن تجاه الفقراء والمحرومين، وكذا اجتماع الأرحام؛ فالكثير من الأشخاص يُؤثرون صيام رمضان في أجواء عائلية تزيد من لحة الأسرة وتماسكها.

ويمتاز شهر رمضان عن غيره من الشهور بتوطيد وشائج المحبة والتآلف بين أفراد المجتمع المسلم؛ إذ يُهنئ الأفراد بعضهم بعضاً بقدموه، ويعمد الصائمون إلى أتباع نظام متناغم في ما يخص أداء العبادات، ويتوحد الجميع في تحمّل المشاق، والصبر على الشدائد، وفي عدد ساعات الصوم وأيامه، ويشارك بعضهم بعضاً فرحة الإفطار، ويجتمعون لاستقبال ليلة القدر وعيد الفطر المبارك، بما يُحقّق في هذا الإطار عدالة تراعي توافر الشروط المفضية إلى صوم نافع مُحقّق للمقاصد والغايات. وعلى هذا، فإنّ مقصدية التآزر الاجتماعي تُعدُّ مرآةً لمدرسة رمضان التي يتدرب فيها المتخرج على فعل الخير باختياره الحر، ويستفيد من كف لسانه عن الكذب وقول الزور، وكذا عدم الغش في أثناء أداء الأعمال وتحقيق الأهداف، وتجنّب مختلف الموبقات المجهضة لتحقيق صورة الإنسان الحضاري.

وبذلك يتجه الفرد نحو توطيد الخبرة الدينية في جوانب حياته المتعددة، ولا سيما احترام الوقت، وتوخي الحكمة في الكلام، بما يُسهّم في التحرُّر من سلطان العادات السلبية، وتحقيق الاستقامة عن طريق المجاهدة والثبات الحكيم. فالصوم يُعلّم المسلم الصبر، ويُعينه على محاربة الشهوات المنحرفة والوساوس المتسلطة، ما دام يُمكنه من التغلّب على اللذة المباحة، بوصفها طريقةً فاعلةً للتغلب على اللذة الآثمة.^{٢٤} فالنفس بحسب أبي حامد الغزالي "تُخلّق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتربية، وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم (...). لذلك كان لا بُدّ من الاحتمال لمرارة الدواء، وشدّة

^{٢٤} المطراني، علي مصلح. "أثر الصوم في تربية شخصية المسلم: علمية الصوم وأسواره"، (رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٥٠هـ)، المملكة العربية السعودية، ص ١٣٩.

الصبر على المشتتهيات لعلاج الأبدان المريضة، فكذلك لا بُدَّ من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب.^{٢٥}

والواقع أنَّ تشكيل الإنسان النوعي مرتبط بسعيه للتخلي بالإيمان الموصل إلى مرتبة الإحسان، حيث تتجلى الاستقامة الفردية في أبعدها؛ إذ يعمد المسلم طوال أيام صومه على تركية نفسه، وحملها على المجاهدة الإيجابية، بالابتعاد عمَّا يُعكِّر صفو الصوم؛ لتستقيم أحواله اجتماعياً عن طريق تبني الانكسار المُؤلِّد للقوة؛ إذ لا معنى لصوم النهار ثم الإفطار بالحرام، ولا معنى لكسر شهوة الطعام ثم تعويضها بالنهم والشره عند الإفطار، ولا معنى أيضاً لإكثار النوم في النهار من دون الإحساس بالعطش والجوع ومعاناة المرضى والفقراء.^{٢٦} ولهذا، فإنَّ إفراغ النفس من الموبقات، وتخليتها بالنشاط والفاعلية يعني بالضرورة إفراغاً لكل المعبّقات التي تُعوِّق معرفة الله بالتخلية والتحلية، ثم ملأها بالروحانيات التي تبرز أولاً بحمده على نعمه.^{٢٧}

وقد لخصَّ أبو حامد الغزالي فلسفة الصوم بقوله: "اعلم أنَّ الصوم ثلاث درجات: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص. أمَّا صوم العموم فهو كفُّ البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق تفصيله. وأمَّا صوم الخصوص فهو كفُّ السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام. وأمَّا صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنيئة والأفكار الدنيوية، وكفُّه عمَّا سوى الله ﷻ بالكلية."^{٢٨}

سادساً: مدرسة رمضان وسؤال الزمن

إن المقصد الأساس من الصوم لا يتباعد عن تدريب النفس والجسد، ومن ثم ترقيتهما ليصل الإنسان إلى مرتبة النوعية التي تجعل منه كائناً قادراً على ضبط رغباته

^{٢٥} الغزالي، أبو حامد. إحياء علوم الدين، القاهرة: مركز الأهرام للتقييم والنشر، ط ١، ١٩٨٨م، ص ٢٥٥-٢٥٦.

^{٢٦} الغزالي، أبو حامد. أسرار الصوم، تحقيق وتقديم: ماهر المنجد، دمشق: دار الفكر، ١٩٩٦م، ص ٤٧-٤٨.

^{٢٧} Towns, Elmer. *Knowing God Through Fasting, USA: Destiny Image Incp, Shippensburg, 2002, P 12.*

^{٢٨} الغزالي، أسرار الصوم، مرجع سابق، ص ٤٠.

ونزواته وترقية شخصيته، فيصير منجزاً للسلوك، ومحققاً للفعل، بما تقتضيه الدواعي والصوراف، كما أن الحالة الروحانية والإيمانية المرافقة له كفيلة بإحداث التغيير في فكر الإنسان وسلوكه نحو الأحسن، شريطة ارتباط ذلك بوعي عميق مُدرك لمقصدية الصوم، وأهمية الإجابة في التغيير والتطوير في حياته. ومثال ذلك طريقة تعامل الصائم مع الوقت أو الزمن في بُعديه الميكانيكي والنفسي؛ إذ يتعلق الفهم الأول بالاستعمال اليومي الذي نشير به إلى الوقت، بوصفه قياساً للحركة كما تخبرنا الساعة، في حين يحيل الفهم الثاني إلى تقلصه وتمدده بحسب الحالة النفسية للإنسان. فالصائم الذي يفقه بشكل مُعمق مقاصد الصوم بسعيه الحثيث لتوفير شروطه، سيرى في الوقت الوسيلة المثلى لتحقيق الغايات والأهداف، سواءً بالإحالة للزمن الدنيوي في ستمته المؤقتة، أو في إحالته للأبدية والسرمدية من حيث ارتباطه بالآخرة بوصفها دار الخلود.

الحديث عن الزمن بوصفه مساراً يومياً مزامناً لحياة الفرد، لا يعرف التتمة والانقضاء مادام مستمراً ودالاً على الحركة والتغيير في إحالة إلى الطبيعة الاجتماعية للزمن وتأثيرها على طبيعة العمل. والواقع أن معيار حياة الإنسان زمني بالأساس؛ لأن نهايته تحيل بالضرورة إلى نهاية حياة الفرد. لذلك يتحدد الزمن من خلال تصورين أساسيين: تصور حسي موضوعي يمكن إدراكه عينياً لارتباطه بحياة الفرد، وتصور آخر يُجايب الوجود الإنساني برمته تقاس به حياة الشعوب والحضارات.

ضمن هذا الإطار تبرز علاقة الصوم بالزمن، سواء من حيث موعد الإمساك والإفطار، أو حينما يتعلق الأمر بشهر رمضان المبارك بوصفه موعداً سنوياً يتم تحديده بدقة تبعاً لرؤية الهلال، كما أنه يحمل مؤشرات عديدة تُحيل إلى انقضاء سنة من عمر الإنسان، زيادة على فريدة تعامل الصائم مع الوقت في هذا الشهر، فتغيب بعض العادات والممارسات لتحل عادات وممارسات أخرى على غرار عادات مواعيد تناول وجبات الطعام.

إن التفرد في إدراك الصائم لعامل الوقت، سواء في إجرائيته؛ لأنه المحدد لبداية الصوم ونهايته، أو في أبعاده ومقاصده المختلفة، سيفضي -لا محالة- إلى جعل الوقت التحدي

الأبرز؛ الأمر الذي يدفع إلى استغلاله بما يحقق القيمة والفائدة بوصفه قيمة مضافة وعاملاً رئيساً، أكان هذا لتحقيق الذات أو التحقق الحضاري بشكل أوسع وأعمق، بما يدرأ هدره وإضاعته، لا سيما في ضوء سيطرة الثقافة الاستهلاكية الناجمة عن إكراهات الاقتصاد وتأثيرات العولمة؛ إذ يرتبط ويقتصر مفهوم الزمن على تحقيق التطلعات الاقتصادية والاستهلاكية، مما يعطي للمستقبل صفة الصدارة، الأمر الذي قد يدفع الإنسان إلى الكدح وفق المقاربة الاقتصادية، فيصير كل ما هو خارج عن تحقيق تطلعات الفرد الاقتصادية هدرًا وتبذيراً للوقت، بما يؤثر سلباً على العلاقات الأسرية والإنسانية.

كما أن الالتزام الدائم والمطلق بسمة الزمن الأبدية والسرمدية، من حيث ارتباطه بالآخرة بوصفها دار الخلود، قد يفضي إلى فهم جدي يعطي مبرر عدم الحاجة إلى الاهتمام والبحث في الزمن الدنيوي، إلا بوصفه طريقاً للزمن الأبدى، وجزءاً منه ضمن دائرة العبادات خصوصاً. فيتم الانتصار لما هو دائم وسمدي على حساب المؤقت والزائل الذي يحمل سمة الانتظار والعبور، بمواءمة ذلك بمقامات الصبر والسكون؛ طمعاً في النجاة، ومن ثم الوصول إلى لحظة السرمدية والخلود، فيكون للزمن الأبدى تأثيره الواضح على الإحساس بالزمن الدنيوي، الأمر الذي يُفقد -ضمن هذا السياق- سبل الفاعلية والتأثير بالنظر لجملة الصفات التي يؤسس لها هذا التصور لكل ما هو دنيوي، على أساس أن الدنيا الفانية دار ابتلاء ومتاع الغرور. ومثال ذلك الشخص الذي يتأخر أو يتغيب عن العمل بحجة صومه واستغراقه في العبادة، علماً أن العمل عبادة أيضاً.

ما من شك في أن الأداء الإيجابي والفعال لشعيرة الصوم يُلزم الصائم بحسن التدبير والتصرف، حتى لا يكون صومه شكلياً؛ إذ لا يُعقل أن يكون مبرر الصوم عذراً للتأخر أو الغياب أو عدم إتقان العمل، ولا ينبغي أيضاً أن يصبح الصوم مبرراً للنوم والغش والتقاعد وهدر الوقت، فيتأخر العامل أو يتغيب أو تنقص فاعليته بحجة أنه صائم، خصوصاً وأن الصوم يشترط الاستطاعة كما أنه يُشكّلها في الوقت عينه، لذلك يقال إن الصوم مدرسة يتخرج منها الصائم بدروس مُستقاة على مستوى الفهم والممارسة، لا سيما أن الصيام يختلف عن العبادات التي تؤدي ظاهرياً في خلوه من الرياء في شكله

الفاضح؛ لأن منطلقه الأساس الكف عن المفطرات، وفيه يتساوى الصائمون في الكف الظاهري، الذي يسد مداخل الرياء، علماً بأن الصوم في ظاهره ومنطلقه عبادة وممارسة فردية تعني الصائم في مقام أول، من زاوية أنه المكلف بالكف عن المفطرات.

يُعدُّ صوم شهر رمضان مدرسة فعلية للإنسان؛ إذ يتكوّن ويتخرّج بقدرة على الصبر والتحمل مما يُعمّق قوة الإرادة؛ لأن الصوم مشقة يتحمّل فيها الصائم الجوع والعطش كما يقاوم الملذات والشهوات، الأمر الذي يُعلي من خصيصة الإحسان عنده؛ لأن الصائم رقيب نفسه من منطلق أن الصوم عبادة فردية بالأساس؛ إذ لا أحد يعلم إفطار الصائم من صومه إلا صاحب الشأن، الأمر الذي يُعزز رقابة الفرد الذاتية وقدرته على التحكم في نفسه. فيكون شهر الصوم قطيعة مع عديد العادات السيئة التي تستبد بالإنسان وترهن حرّيته وتتحكم في إرادته، على غرار عادة التدخين التي كثيراً ما يعمد بعض المدخنين إلى الاستفادة من شهر الصوم للإقلاع عنها نهائياً.

إن فلسفة صيام رمضان قائمة على ترقية الفرد البالغ والقادر بتدريبه على تحمل المشاق، فيكون المقصد الأساس صناعة الإنسان القادر على الإنجاز وتحمل المسؤولية في إطار فعل الزمن؛ صوم ثم إفطار؛ وبمعنى آخر تدريب ثم استراحة. وهو التدريب الذي يُفضي إلى تحفيز الإرادة وتقويتها بالشكل الذي يدفعنا للقول بأن ثم مقاصد لا تحصى ودروس تكاد تبدأ ولا تنتهي على الصعيد الفردي والاجتماعي، تبدأ بصناعة الفرد وتشكيله ليكون قادراً على تحمل الصعاب، ومن ثمّ إحياء ذاته وتجديدها لتصل عند استكناه واستيعاب مقاصده ومراميه المتعددة والمتنوعة، خصوصاً أن شهر رمضان يحلّ كل سنة مرافقاً مختلف الأشهر والفصول، زيادة على الإحالة إلى معنى المساواة في الكف عن المفطرات بين الفقراء والأغنياء، وكذا الإشارة لوحدة الصائمين في مختلف أصقاع العالم.

لعل استثمار الزمن وفق مقارنة مقاصدية تنظر إليه بوصفه رأس مال وقيمة مضافة ينبغي إيلاءها الأهمية، هو المدخل الأساس لكل تنشئة اجتماعية سليمة بغرض تحقيق متطلبات الإنسان المستقبلي والحضاري، الذي يُجَيّن ويُحدّث أفكاره، ويكدح بشكل مستمر لكي يغيّر مسار الحياة نحو الأفضل والأحسن واقعاً وفكراً. لذلك يُشكّل الصوم

رافداً مهما لاستثمار الزمن طالما يتحدد به ويقوم عليه في البدء وحين المنتهى، بداية شهر أو يوم الصيام ونهايته، فيصير الصوم استثماراً فعلياً لا يعرف الانقضاء مادام الزمن مستمرًا، ويصير رضا الصائم وفرحته بإنهائه صوم رمضان مؤشراً على قدرته على الفعل، ومن ثم إرادته المطبقة التي تجاوز من خلالها مختلف الإغراءات والنزوات التي تدعوه للإفطار، وتحاول إفساد صومه، فيصير التغلب على حصار الزمن وقهره حينما يتعلق الأمر بصوم ساعات طويلة في يوم شديد الحرارة عاملاً رئيساً لاستحلاب الثقة والشعور بنشوة الانتصار، وهو شعور الفرحة والسعادة الذي يعتري الإنسان بجلاء ووضوح حينما يفطر في يومه مع آذان المغرب، أو حينما يتم الشهر بحلول عيد الفطر المبارك.

سابعاً: صوم رمضان بين التمثُّل والواقع (تفعيل المقاصد)

يُعدُّ الشهر الفضيل مدرسة نوعية يتخرج فيها الإنسان المسلم بحصال فاضلة تمده بالفرداة والنوعية. وهو يُمثِّل فرصة سانحة لتدريب الجسم والنفس على تحمُّل المشاق؛ ما يُسهِّم في السيطرة عليهما، والتحكم في الشعور والنزوات، في ظل اتباع عادات جديدة في المأكل والمشرب، إلى جانب عنصر الزمن الذي يتخذ طابعاً خاصاً يتواءم مع شهر العبادة والقيام، فضلاً عن خصوصية التقاليد الاجتماعية المميزة له. ويمكن أيضاً قراءته ثقافياً من زاوية الأنشطة المعرفية المصاحبة، واقتصادياً باستقصاء الوضعيات الاقتصادية السائدة فيه وتحليلها فردياً واجتماعياً.

وبالرغم من إيجابيات الصيام المتعددة، فإنَّ الإفادة منها تظل مرتبطة بطبيعة الفرد، ومدى تمثُّله لشعيرة الصوم؛ فقد تفضي عادات الصائم وسلوكاته المغلوطة إلى إصابته بالأمراض، وذلك حين يُؤثِّر العزلة الكاملة، أو يعمد إلى تناول الطعام بنهمٍ وشراهٍ، أو يصر على الصوم من دون مراعاة لحالته الصحية.²⁹

فحاجة المسلم إلى الصوم تظل ضرورية بوصفها حالةً إيمانيةً ومطلباً صحياً، بيد أنَّ الإفادة منه إيمانياً بحسب مقاصده تظل مسألة نسبية حسب ما تُبيِّنُه الوقائع. فبدلاً من

²⁹ Bickle, Mike. *The Reward of Fasting, Experiencing the Power and Affections of God*, USA, Forerunner Books, Missouri, 1984, P 118.

أن يكون رمضان شهر التوبة والغفران، أصبح عند الكثيرين فرصة للغنى المادي والاحتكار والجشع. صحيح أن التعميم ليس لغة العقلاء، غير أنَّ الواقع يُثبِت أننا لم نصل بعدُ (أفراداً وجماعاتٍ) إلى مرحلة تمثّل مقاصد الصيام مثلما أرادها الخالق ﷻ. فكثيراً ما يُمسك الفرد عن تناول الطعام، في حين يملأ معدته وقت الإفطار؛ فتنتفي إحدى حكم الصيام المهمة، ويصدّم الجهاز الهضمي بكمية غير متوقعة ممَّا لَدَّ وطاب.^{٣٠} هذا ما تُثبته التقارير والسجلات الطبية، ولا سيما في الأيام الأولى من الشهر الفضيل؛ إذ يضطرب التنفس بامتلاء المعدة، فيستبد الخمول بالفرد على نحوٍ يُعَوِّقه عن العمل وكذا ممارسة الشعائر والعبادات. وتعتمد العائلات إلى توفير المزيد من المال لهذا الشهر؛ بغية مواجهة الغلاء الفاحش، والجشع المستشري، والسعي الدؤوب لتكون موائدها ملأى بما لَدَّ وطاب من أصناف الطعام والشراب.^{٣١}

وكثيراً ما يتحوّل الشهر الفضيل إلى وقت للتسلية واللهو، فيقبل الكثيرون على مشاهدة المسلسلات، أو التوجه إلى الخيم الرمضانية، أو المقاهي بغرض الترفيه، بما لا ينسجم مع مقاصد الصوم، ولا يتناغم مع أجدديات التحضُّر حينما يتعلق الأمر بهدر الوقت وتأثير ذلك على إتقان العمل، فضلاً عن مزاحمة الناس بعضهم بعضاً في الأسواق والأماكن العامة، وتهُور بعض السائقين بحجة الصيام؛ ما يُفقد الصوم بُعده الروحي، وما يُمثّله من شعيرة سماوية ربانية تهدف أساساً إلى تهذيب سلوك الإنسان، وزيادة إيمانه والتي هي أحسن وصولاً إلى درجة التقوى.

وقد يلتزم بعض الأفراد بأداء الفرائض والعبادات على أحسن وجه طوال أيام الشهر الفضيل ولياليه، بيد أنهم سرعان ما يتهاونون في ذلك بعد رحيله وانقضائه. أمّا بعض آخر فيفهمون الصوم على أنه إمساك عن الطعام والشراب، فتراهم يكذبون، ويفحشون في القول، ويتكلمون في الناس بالسوء، مُمثّلين النميمة والغيبة في أبلغ صورها.

^{٣٠} نضال، عبد القادر الصالح. المأزق في الفكر الديني بين النص والواقع، بيروت: دار الطليعة، ط ١، ٢٠٠٦م، ص ١٥٧.

^{٣١} منديب، عبد الغني. الدين والمجتمع: دراسة سوسولوجية للتدين بالمغرب، بيروت-الدار البيضاء: دار إفريقيا للشرق، ٢٠٠٦م، ص ١٣٨.

لقد حوّل الإسلام بمقاصده الصوم من علامة للحزن، ومظهر للحداد، وتذكّر للكوارث في بعض المعتقدات، إلى ممارسة وسلوك يغلب عليه طابع التفاؤل، وأسنده بالخيرات والحسنات، بحيث جعله رابطاً مباشراً بين العبد وربّه.^{٣٢} ولهذا ينبغي تلمّس طرائق الهدي الصحيح، وسبل الإقناع التي تقوم على الحجّة والمجادلة والتي هي أحسن لشرح مقاصد الصوم، مركزين على روحانيته، وإخراجه من دائرة الرتابة والمظاهر والسلوكات الزائفة. فالصوم الحقيقي يبدأ بالنفس، ويلامس جوهر الإنسان، مُعبّراً عن نيته الصادقة؛ لذا يتعيّن على مؤسسات التنشئة الاجتماعية الاضطلاع بدورها في هذا الجانب، لينمو الفرد مُدركاً مقاصد الصوم التي لا تقتصر فقط على الإمساك عن الطعام والشراب، وأيّما تتعداها لتشمل السلوك والممارسة؛ تحقيقاً لمرتبة التشريف التي يستحقها الإنسان بسمته العاقلة.

خاتمة:

خلص البحث إلى أنّ الوسيلة الفضلى لتمثّل مقاصد الصوم هي ربطه بالمقاصد العامة للعبادات في الإسلام التي تقوم على الإيمان بعظمة الخالق، وامتنال المسلم لأوامره ونواهيه؛ وصولاً إلى ما فيه الخير والصلاح والفلاح لأفراد المجتمع كافة. وعلى هذا، فإنّ استقصاء الصوم مقاصدياً، ومقارنته ضمن الإطار المعرفي لفلسفة الدين يبرز الإمكانيات المعرفية المتعددة التي يتشكّل وفقها المسار الإيماني في علاقته بالمجالين: النقدي والفلسفي، من حيث الدعوة إلى البحث العلمي والعقلي، بتطبيق منهج الاستدلال عبر مستويات الاستنتاج والاستقراء والمماثلة، بغرض فتح حوار يُحقّق مراد الفهم والإفهام.

وخلص البحث أيضاً إلى أنّ قراءة الصوم مقاصدياً تعني بالضرورة البحث في غاياته النبيلة المؤسّسة على توافر شروطه من حيث الوجود والصحة، وتعني أيضاً نقد السائد اجتماعياً، ولا سيما الممارسات التي لا تتواءم مع الصوم في معانيه وغاياته الحقيقية؛ إذ لا

^{٣٢} الندوي، الأركان الأربعة: الصلاة، الزكاة، الصوم، والحج في ضوء الكتاب والسنة ومقارنة مع الديانات الأخرى، مرجع سابق، ص ٢٢٩.

فائدة من تأدية شعيرة دون إدراك مقاصدها ومراميها، لأنَّ المعرفة بالغايات تدرأ شبهة اعتبار الصوم عقاباً، وتُبعد سطحية الرؤية المُتمثَّلة في أنَّه امتناع عن الطعام والشراب فحسب، فيكون التساؤل عن هدف الصوم وغايته مدخلاً رئيساً للمعرفة بمقاصده الكامنة في التقوى والصبر، فضلاً عن مختلف المقاصد الظاهرة والخفية المتعلقة بالروح والجسد التي تُؤثِّرُ إيجاباً في المجتمع، بما في ذلك المقصد الاجتماعي الذي يتماهى مع توطين قيم التراحم والتعاون على مستوى العائلة، وصولاً إلى المجتمع الإسلامي كله؛ بهدف إعلاء مبتغى تركيته وصلاحه، وتطوير مقصد تعزيز إنتاجيته، وتخفيض نهمه الاستهلاكي.

وقد تبَيَّن لنا أنَّ محور المقاصد هو الإنسان بوصفه منطلقاً ومقصداً في الوقت نفسه؛ فإنَّ لم يُدرِك المسلم أهداف الصوم وغاياته ومقاصد تشريعه ووجوده، فإنه لن يهتدي بالضرورة إلى تمثُّل هذه الشعيرة بمنطلقاتها ومراميها؛ لأنَّ المعرفة بالمقاصد تعني الفهم المفضي إلى الاقتناع، ثم إمكانية الإقناع والممارسة، بعيداً عن كل إكراه وضغط خارجي؛ ما يُسهِّم - في نهاية المطاف - في بناء الإنسان النوعي الحائز على سمة التشريف الإلهي بعقله وقدرته على تحمُّل المسؤولية، بما يجعله أهلاً لاستحقاق شرف الخلافة والوجود على الأرض.

وتأسيساً على ذلك، يتعيَّن على المسلم أن يُدرِّب نفسه ويربيها على مواجهة الصعاب، ولا سيما في ظل التغيرات البيئية الحاصلة والكوارث الطبيعية، وكذا الأزمات الاجتماعية والاقتصادية التي تعانيتها الكثير من المجتمعات. فترويض النفس والجسد ينمي لدى المسلم فضيلة الصبر، ويجعله يتحمل الشدائد، وصولاً إلى مرتبة التقوى التي تشمل الصبر والإيمان، والتي تجعله إنساناً فاعلاً، ومواطناً صالحاً، مُحققاً غاية الوجود.